حِذاءُ العِيد

قصة بقلم جورج طرابيشي

« عندما يقبل العيد ، الفرح المطلق ، تكتسي الدنيا بدفء لذيذ ، وتخضر اوراق الشجر اليابسة ، وتحمر خدود العذارى السافرات ،ويلتهب الحب في قلوب الشعراء ، حتى النجوم في السماء تمسح عن جسدها ما علق عليها من الغبار فتزداد لمعانا وتلألؤا . والشيخ الذي اقعدته السنون يرفع عينيه الى السماء ويصعد تنهدة عميقة .

والاطفال ، الاطفال الصغار ، يزغردون لان العيد سيحمل اليهم هدايا كثيرة وثقيلة وستمتلىء جيوبهم الكبيرة بالنقود ، بالحلوى ، بالالعيب وسيتلقون القبل المفرحة على خدودهم من كل انسان .

لن تبقى الدنيا على حالها في يوم العيد ، سينسى المريض آلامه ، ويتوب الخاطىء عن آثامه ، وستغرد الدمعة الراقصة في عيون الثكالى . حتى العشاق سيتعانقون في كل مكان امام الجميع وستمتلىء قلوبهم بفرح الحياة المطلق » .

ـ « ولكنني لست كذلك » .

ردد هذه الكلمات الجوفاء في نفسه بدون ان يتبدل شيء من ملامح وجهه ، ثم حدق في اخويه الصغيرين اللذين احاطا به . ان عيونهما تنطق بالفرح المنتظر ، بالعيد

ـ ماذا تريدان ؟

قالها بشيء من القسوة ، القسوة الخائفة

وماتت اللهفة المتدفقة على شفتي الكبير . وصاح الصغير بتحد :

ـ انني اريد حذاء جديدا .

فردد الكبير بخوف :

ـ وانا ايضا اريد مثله ... حذاء جديدا .

ونظر اليهما بهدوء مصطنع يخفي تحته غيظا عارما . كانت عيونهما تتحداه بشكل غريب . وخيل اليه ان فيها اصابع خفية تجذبه اليها بقسوة لبقة . واحس بالقرف والضيق يعتصران قلبه . لم يعجبه هذا التحدي ؟ وعاد ينظر اليهما بحدة اشد ، ولكنهما لم يثنيا ، ولم يبن عليهما انهما قد شعرا بنظراته . كانا في تلك اللحظة بريئين جدا ، بل خيل اليه انهما ابرأ من كل مخلوق على سطح الارض . فأيديهما الملوثة ، واظافرهما السوداء الطويلة ، واسنانهما الصفراء المنخورة ، كل هذه الاشياء التي كان يكرهها فيهما وتفصله عنهما ، اختفت عن ناظريه . لم يعد يرى سوى اربع عيون تتراقص من الفرح ، اربع عيون تحاول ان تكون اكثر توهجا مما هي عليه في الحقيقة . وهز رأسه بالم : اني له ان يقاوم مثل هذه البراءة ؟

قال الاكبر :

ـ انني اريده بنيا

ورفع الاصغر صوته صائحا :

ـ انا اريده اسود لامعا

وصدمته لهجتهما . كان كل منهما يتكلم بانطلاق وعفوية . لم يشعرا بحاجة الى صف الكلمات وتهيئتها ، بل لعلهما نطقا بكلماتهما من غير ادراك لها . كانا يتكلمان بلهجة عادية ، شفافة ، لا افتعال فيها . لهجة اعادت اليه الاحساس بالدفء والحرارة . ولكنه اصم اذنيه . كان يخشى ان يجرفه التيار . وعاد يحدق فيهما من جديد . وفجأة اختفى الشعور الكريه الذي راوده منذ لحظات ، وخيل اليه انه يسبح الآن في العيون الكبيرة الاربع ... كان الماء فيها حارا دافئا ، وقد زالت عنها الخطوط الحمراء الدموية المعروقة وانتبه الى الحرارة التي دبت الى قلبه ، واراد ان يلمس مصدرها ، ولكن في وجهيهما ... كان يبدو انهما واثقان من كل شيء كوثوقهما من ان العيد سوف يطل بعد يومين . لماذا هما واثقان الى هذا الحد ؟ من قال انه سيشتري لهما الحذائين ؟ ولكنهما ما كانا يعيران افكاره التي لم تستطع شفتاه ان تصرحا بها اي انتباه . كانا واثقين من حصولهما على الحذائين ..

قال الاكبر :

ـ ولكن الاسود ليس جميلا .

فصاح الاصغر محتجا :

ـ لا. من قال لك ذلك ؟ انه اجمل من البني .

لماذا يتكلمان بهذه اللهجة ؟ الا يستطيعان ان يكفا لحظة واحدة عن حديثهما ؟ الا يستطيع الشك ان يتملكهما ولو فترة قصيرة ، ولكنها كافية كي يقول كلمته الحاسمة ؟ نعم لا بد ان يقول كلمته الحاسمة . يجب ان يوقف ذلك السيل المتدفق . يجب ان يعيد الى اعينهما رطوبتها القديمة ، ويمنع شفاههما من الكشف عن اسنانهما التي ترسل اليه دفعات كبيرة من الحقد . لا بد له من التقيؤ بكلمة ما . كلمة تعيد اليهما هدوءهما القاسي وراح يبحث عن هذه الكلمة .. ولكن عبثا . وادرك انه مهما تقيأ فلن يستطيع النطق بها . وعزم ان يصرخ ، ان ينفجر في وجهيهما كي يدعاه في راحته الجافة . ولكنهما لم يتركا له مجالا . ان عيونهما الكبيرة اللامعة تلتهم كل ارادته ، وتبتلع كل افكاره .

وعاد الاكبر الى الكلام ...

ـ ومن قال لك انه اجمل من البني ؟

فقال الاصغر واوداجه منتفخة :

ـ انا قلت .

كانا يحدقان به ليستطلعا رأيه ، ولكنه اطبق جفنيه هربا من تساؤلهما . وفي تلك الهنيهة القصيرة التي ساد الظلام فيها من حوله تمكن من استعادة ارادته المهزومة ، وادرك ببساطة انه لا يستطيع ان يلبي طلبهما . وقرر ان يخبرهما بالحقيقة كما هي . وعندما كان يفتح عينيه شعر بأن جفنيه يتثاقلان في حركتهما . ولكنه ، عندما نظر اليهما النظرة الاخيرة الحاسمة علم بانه لن يستطيع ان يقول شيئا . انه لن يغير شيئا من معنى العيد . العيد يعني الفرح . وكان الامل القلق يعبث باعصابهما . كان كل منهما يعتقد بانه سيناصره ويؤيد اللون الذي اختاره ، غير انهما لم يتصوروا مطلقا انه يريد ان يقول لهما اشياء اخرى تقضي على كل اللحظات السعيدة التي تملكتهما منذ ان بدأا الحديث .

ولكنه لم يقل شيئا . واحس بان صمته اخجلهما فاتعد السؤال على شفاههما . وادرك انهما يفتشان عن كلمات جديدة يخفيان بها ما اعتورهما من اضطراب امام صمته .

وصاح الاكبر :

ـ انا اريده مخططا .

ولكن الاصغر قال وقد سيطر الجد على ملامحه :

ـ ولكن المخطط يتمزق بسرعة . انني افضله بلا خطوط .

انهما لا يأبهان له . انهما بعيدان جدا عن عالمه . لقد صمت كل شيء في اعينهما ولكنه لم يكن صمت الفشل . انهما لم يعودا بحاجة الى التفكير بالحذاء اذ اصبح جزءا لا يتجزأ من كيانهما . لم يعتقدا لحظة واحدة بأن كل جدالهما لاقيمة له لانهما لن يحصلا على الحذائين . لم يشكا مطلقا في ان اقدامهما ستخطو مزهوة بعد يومين بالشيء الجديد اللامع الذي يكسوها . لن تكون اقدامهما كما هي الان بل سيتبدل فيها كل شيء . انها لن تعود من جسدهما . ستخطو بكبرياء وانفة وكأن لها وجودا خاصا ، وجودا يعلو على سائر الوجود .

قال الاكبر شامتا :

ـ انك تمزق الاحذية بسرعة .

وقال الاصغر باللهجة نفسها :

ـ انت تقول ذلك . لقد مزقت حذاءك هذا قبلي .

كان يحاول ان يعيد الثقة الى نفسه . انه يريد ان يكون واثقا من كل شيء كما هما واثقان الان . هل يستطيع ان يصرح بالامر بدون ان تختلج اهدابه ؟ ان ارادته ستخونه . انه لن يتمكن من مفاجأتهما بكلماته الرنحة الجلمودية . انه ليس جارا يذبح الخراف البريئة بلا مبالاة . لا بد له ان يموه ، ان يتلاعب بالالفاظ . بل انه سيضطر الى الكذب . الكذب المكروه البغيض . هل يعمد الى الكذب ؟

وقال الاكبر :

ـ انك لا تلعب بالكرة ولذلك لا يتمزق حذاؤك .

فقال الاصغر متباهيا :

ـ انني لا العب بالكرة ، وهذا افضل لي .

كيف يقول الانسان للاخرين انه لا يملك نقودا ؟ انه يريد ان يصرخ بكل قوته : « لست املك شيئا . الم تفهما بعد ؟ نحن فقراء . انا لا املك حتى ثمن الحذائين اللذين تطلبان . هل تستطيعان ان تفهما ما معنى الفقر ؟ مستحيل . انتما لا تزالان طفلين ، طفلين يسألان ابسط شيء يمكن ان يطلبه الطفل في العيد . ولكنني لست طفلا . انا افهم معنى الفقر ، افهم مرارة الذي يمد يديه الى جيوبه ولا يجد قرشا حقيرا . ساقول لكما بصوت عال اننا قوم فقراء ، ولكن ماذا تعني لديكما هذه الكلمات ؟ لا شيء . هذا مؤكد . »

وتابع الاكبر متحديا :

ـ لكن في هذه المرة سيتمزق حذاؤك قبلي .

واجاب الصغير باللهجة نفسها :

ـ سنرى

هذه المرة ؟ وهل هناك مرة اخرى ؟ يا للسخرية ! يحسبان ان الحياة تمنح الانسان اكثر من فرصة واحدة . انهما يأملان في مرة اخرى . المرة الاخرى التي لم تسنح للانسان مطلقا . ولكنهما طفلان . طفلان . يزغردان للعيد ويزغرد العيد لهما . ان العيد قد خلق للاطفال . الاطفال هم البراءة نفسها .

وقال الاصغر من غير ان يبدل لهجته :

ـ سنرى ! الايام امامنا.

نعم . الايام امام كل انسان . ايام قاسية باردة . ايام لا يملك الانسان فيها حتى ثمن حذائين يطلبهما طفلان عند حلول العيد . لم يريد الشعراء ان يجعلوا من العيد يوما عبقريا لا يماثل ايام السنة الاخرى ؟ لماذا يسبغون على العيد معنى ليس ضروريا ؟ ان العيد يحمل الالم ويثير الشقاء . للعيد مطالبه العديدة ، وويل للذين لا يفرحون في العيد .

وعاد الاكبر يقول وقد امضه الصمت الثقيل :

ـ ومن اين سنشتري الحذائين ؟

فقال الاصغر مبتسما :

ـ في « السويقة » توجد الاحذية السوداء اللامعة .

لقد عادا الى التحديق فيه . انهما يطلبان كلمته النهائية . لقد القيا كلماتهما الاخيرة وكأنهما لاعب قمار احنقته الخسارة فالقى على الطاولة اخر ورقة بيده . عليه ان يحسم القضية بسرعة . نعم او لا . هذا كل ما سيتفوه به . لم يعد الانتظار ممكنا ، فقد قالا كل ما يمكن ان يقولاه . ولقد جاء دوره الان . وعليه ان يزيل القلق من تلك الاعين الزجاجية الكبيرة التي تكاد ان تلتهمه بلهفتها .

ـ لن تحصلا على الحذائين .

لقد قال اخيرا هذه الكلمات المرعبة . قال كل شيء يمكنه ان يقوله . ولكنهما ـ هما ـ لم يبد عليهما انهما قد فقها شيئا . ان عيونهما تدور في محاجرها بسرعة غريبة . انها تبحث عن مخبأ لها . ولكن الحقيقة لا تهرب . انها صامدة ، لا تحول وجهها . وسيلتقيان بها مهما حدث . وامتلأت عيونهما بالغضب .

وقال الاكبر بصوت مبحوح :

ـ ولكنك وعدتنا ! اليس كذلك ؟

وهز الاصغر برأسه موافقا :

ـ نعم لقد وعدتنا !

وادرك فجاة انه لن يستطيع الاحتمال اكثر من ذلك . انهما اضعف من ان يحتملا الحقيقة . ان الالم الذي ينبعث من اعينهما سيذيب كل مقاومته . كان عليه ان يكذب حتى لا يقضي على الجنين ، جنين الامل الذي ولده العيد .

ـ صحيح . لقد وعدتكما . سنشتري الحذائين .

واستطاع ان يحس بنفضة الفرح الذي تملكهما .

وقال الصغير وهو يلهث :

ـ متى ؟

ـ بعد الظهر . لا . الافضل غدا لانني مشغول قليلا . العيد بعد يومين. لدينا الوقت الكافي. اذهبا عني الآن .

واغلق عينيه . هل العيد بعد يومين حقا ؟ انه ليس واثقا من ذلك . ولكن الامر الذي صار يثق به تمام الوثوق هو ان العيد ليس الا خدعة ، خدعةتقنع الكبار بانهم ما زالوا اطفالا ،وتقنع الاطفالبحصولهم على احذية جديدة لامعة ، لن يحصلوا عليها مطلقا . وهو واثق الان تماما ان اخويه الصغيرين ، سيفهمان بلا شك ، عندما يسيران بعد يومين بلا احذية جديدة، ما معنى ان يكون الانسان فقيرا !.

حلب

جورج طرابيشي